هم .. اكثر من الكلمات

محمود درويش

● تلك اللحظة ، لم يكن الشارع شارعا في مدينة . وهذه محاولة وصف :
كان كل شيء ونقيضه .
كان فاصلة تدل على الماء ، وعلى الدم .
وكان ذبابة تأكل الحرف الفاصل بين الموت والحياة ، وبين الموطن والمنفى .
كان مذبحة وحفل زفاف . ولم يكن لوركا عربيا تماما :
« اذا مت
فدعوا الشرفة مفتوحة .
الطفل يأكل البرتقال .
(من شرفتي أراه)
الفلاح يحصد القمح .
(من شرفتي أسمعه .)
اذا مت
فدعوا الشرفة مفتوحة » .

كنا نسهر ، ونحسبها قصيدة جميلة . وكان الرصاص يمشي في الشارع الآخر . يفتح باب كمال ناصر ، يقتل العصافير في قلبه . ويعود من الباب ذاته ، والشارع ذاته ، والمدينة ذاتها . وكنا نسهر ، ونعتبرها مجرد قصيدة جميلة ، لان لوركا لم يكن عربيا تمامـــا .

● أخيرا فعلها ومات . صدّقه الموت لان الموت لا يمزح .

وكان كمال ناصر يبني تابوته مازحا ، ويستكتب مراثيه ضاحكا . وفي أوج الفرح يمضي الى الحسرة .

من أين جاءه هذا الموت قطرة قطرة حتى طفح وغطاه ! . كيف سكنه كل هذه المدة ولم نصدق !.

الموت لا يليق بك يا كمال ، كما لا يليق بفراشة .

كان يصر على انه حامل بالموت . كيف نمت فيه هذه الحاسة ولم نشعر . وهل مات ليقنعنا بأن الحدس ، فيه ، لا يخطىء ! .